

العلوم الإسلامية ورسالتها الحضارية: نموذج البيروني ومكتبته*

■ عبد الله بن محمد السالمي

في القول العربي المأثور: العلمُ نَسَبٌ بين أهله. **ف** وها نحنُ أولاءِ نجتمعُ بمقتضى هذا النسبِ الشريفِ، نَسَبِ العلمِ والعلماءِ، وباسمِ أحدِ كبارِ علماءِ هذه البلادِ العريقة: أبي الرِّيحانِ البيروني.

إنَّ النسبَ والصلاتِ القائمةِ بينَ سلطنةِ عُمانَ وجمهوريةِ أوزبكستانَ متعددةُ الأوجهِ والأبعادِ الثقافيةِ، منها الفكري والديني والتاريخي والحضاري، وهذا يدلُّ على عمقِ العلاقاتِ الطيبةِ والوثيقةِ بينِ الدولتينِ في الأزمنةِ الحاضرةِ.

بماذا تتميزُ الأممُ في أزمنةِ نهوضِها الكبرى أو بماذا يتميزُ علماءُها؟ هذا السؤالُ طرحه جورج سارتون مؤلِّفُ الكتابِ الشهيرِ «تاريخِ العلمِ» وأجاب عليه بأنَّ علماءَ أزمنةِ النهوضِ الحضاريِ يتميزونَ بأمرين: الوعي الكبير الجامع لمتطلباتِ التقدُّمِ العلمي، والسعي الحثيثِ لاستكشافِ منجزاتِ الحضاراتِ الكبرى الأخرى القديمةِ والمعاصرةِ.

* كلمة أُلقيت بمناسبة افتتاح مكتبة البيروني - طشقند - (15 مارس 2018م).

■ وزير الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عُمان.



وفي الأمرين تميّز أبو الرّيحان تميّزاً كبيراً؛ فقد دفعه وعيّه المبكّر بضرورات التقدّم ومتطلباته إلى إتقان العلوم التي نهضت في البيئات الإسلامية، فمنها الديني والفكري والفلسفي والبحثي والتطبيقي، وسمت به همّته وبمقتضى الوعي ذاته إلى استكشاف آفاق وميادين الحضارات الآسيوية، وخاصة الحضارة الهندية والحضارة الصينية، وقد كانتا أبرز تلك الحضارات.

كان العلماء والفلاسفة المسلمون قبل أبي الرّيحان البيروني قد عرفوا من طريق الترجمة والشرح والتأليف الكثير عن الحضارة اليونانية بجوانبها العلمية والفلكية والطبية والأدبية.

وقد أَلَمَّ البيروني في العلوم الكلاسيكية التي أخذت عن اليونان شأنه في ذلك شأن صديقه ابن سينا.

يبيد أنّ طموحه وحُبّ الاستطلاع لديه دفعاه لاقتحام عوالم الحضارة الهندية، التي ما كان المسلمون قبله يعرفون الكثير عنها. وقد جاءت كتبه في الحضارة الهندية وجوانبها العلمية رائدةً لهذه الناحية، لم يسبق إليها في المجال الحضاري الإسلامي. ولذلك فقد صارت مراجع لعلماء عصره عن الحضارة الهندية، وظلّت كذلك إلى الأزمنة المعاصرة. يبيد أنّ ملاحظاته واستطلاعاته في سائر الحضارات الشرقية - والحضارة الإسلامية من بينها - تبقى شديدة الأهمية وذلك للمعلومات الواردة عنها، والاستبصارات التي أنجزها فيها.

ما الرسالة التي أراد البيروني إيصالها إلينا - نحن المسلمين - في هذا العصر؟

إنها رسائل عدة، وليست رسالة واحدة.

أولى تلك الرسائل هي رسالة المعرفة، وكما يقول المثل: (إنّ الإنسان عدوٌ ما جهل)، وقد دفعه النهوض الحضاري الذي كانت تعيشه أمته

للتطلع إلى نتاجات الحضارات الأخرى، المجاورة والبعيدة، والكلاسيكية والمُعاصرة. وقد كان يرى ويقول لبني قومه: إن الحضارات الآسيوية هي حضارات كبرى أيضاً، وتملك إنجازاتها البارزة التي يُمكن أن تُسهم في تقدّم المعرفة، وتقدّم إنسانية الإنسان. وبقدّر ما تبدو مختلفة عن حضارة الإغريق، والحضارة الإسلامية؛ فإنّ الاختلاف لا يعني أنّ معارفها أقلُّ وثوقاً وقيمة. فالاختلاف تكاملٌ واغتناء، وتعدّدٌ للمسارات الحضارية الإنسانية.

**الرسالة الثانية المترتبةُ
على الأولى - والتي أرادَ
البيروني إرسالها من خلال
أعماله العلمية الكبرى -
هي أنّ التاريخ الحضاري
الإنساني هو تاريخٌ لحوارِ
الحضارات وتساندها،
وليس لصراعها أو اقتتالها.
فالحروب تجري بينَ
الدول؛ لكنها لا تجري بينَ
الأمم والحضارات.**

والرسالة الثانية المترتبةُ على الأولى - والتي أرادَ البيروني إرسالها من خلال أعماله العلمية الكبرى - هي أنّ التاريخ الحضاري الإنساني هو تاريخٌ لحوارِ الحضارات وتساندها، وليس لصراعها أو اقتتالها. فالحروب تجري بينَ الدول؛ لكنها لا تجري بينَ الأمم والحضارات؛ بل الذي يجري فيما بينها على مدى التاريخ هو الائتلاف والاكتمال والتنامي، وإفادة بعضها من بعض. وهذه هي رسالة التعارف التي بشر بها القرآن الكريم، وكان

البيروني بل وابنُ سينا ومعظمُ المفكرين الآسيويين الآخرين قبلَ البيروني وبعده من أتباع هذه الفلسفة للعلاقات بين الناس في عالم الكون: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

إنّ التعارف هو الأساس الذي يقومُ عليه حوارُ الحضارات وتحالفها وائتلافها. وهنالك عُنصران: عنصرُ الرؤية، وعنصرُ المبادرة والممارسة. وفي العالم كلّهُ هنالك تفاوتٌ بينَ الأمرين؛ لكننا - نحن المسلمين - الأكثرُ تضرراً بما يحدث من تفاوت. ولذلك لا بدّ من المُضيّ في مبادرات



الحوار إنفاذاً لرؤية التعارف، ولكي تتصحح علاقاتنا بالعالم على وعي وعملٍ منا.

إنّ الحضارة العالمية التي نتحدّث اليوم عن إحدى ثمراتها الكبرى - والمتمثلة بالعلامة الكبير أبي الريحان البيروني وأسلافه وأحفاده - مُطالبَةٌ اليوم أن تشارك في صنع حضارة العالم، وأن تُسهم في اثتلاف الحضارات والذي لا يكون إلا متعدد الأركان.

لقد انهمكنا طوال ربع قرن تقريباً في الردّ على دُعاة صراع الحضارات أو تصادمها، وكنا مُحقين في ذلك؛ لأنّ ديننا ولأنّ شعوبنا ليست شعوب صراعٍ وتقاتلٍ. إنما يكون علينا أن نعترف لأنفسنا قبل الآخرين أنّه قد ظهرت بيننا جماعاتٌ للتطرف والعنف، أساءت إلينا، وأساءت للعالم وأمنه. إنّ واجبنا اليوم وغداً تجاه ديننا وتجاه أمننا وشعوبنا يحتم علينا أن نهضّ باتجاه العالم والعصر، وأن تكون رسالتنا أننا لا نريد أن نخاف من العالم، ولا أن نُخيفه، وإنما نريد أن نكون جزءاً منه، وأن نُشارك في تقدّمه وأمنه ومستقبله.

من رسائل البيروني - وإن لم تكن آخرها - أنّ هذه العوالم الحضارية الآسيوية الشاسعة، كما امتلكت ماضياً بالغ الازدهار - في بناء المدن العظمى والحواسر الكبرى - بوسعها أن تشارك من مراكز قيادية في مستقبل البشرية. إنّ تجربتها مع طريق الحرير، ومع صنع الحضارة والثقافة من خلال التجارة - تُوشك أن تعود اليوم لتصنع سبيلاً شاسعاً للإنسانية عن طريق السلام والتنمية والتكامل الاقتصادي.

قرأتُ قبل سنواتٍ كتاباً عن الإسهامات الآسيوية في صنع التقدّم الأوروبي، وها هي روسيا والصين والهند واليابان وأوزبكستان وكازاخستان وتركيا وماليزيا وإندونيسيا، تكتب معاً السيفر الأكبر في صنع مستقبل العالم.

إنَّ المكتبةَ التي نفتتحها اليوم تحتوي على آلافِ الذخائرِ والمخطوطاتِ، والآثارِ الحضاريةِ الكُبرى، وهي تمثلُ استمراراً متجدداً لما نتحدث عنه من تواصلِ حضاريٍّ وتآلفٍ وتقدّم. وسيكونُ ممكناً بالنظامِ الرقمي أنْ تكونَ بيئةٌ للعلمِ والعلماءِ في أزمنةِ الحداثةِ وما بعدها على أيدي الشبانِ الأفاضلِ.

وقد قال الشاعر العربي:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعلُ فوقَ ما فعلوا

من رسائل البيروني أن
هذه العوالم الحضارية
الآسيوية الشاسعة، كما
امتلكت ماضياً بالغ
الازدهار - في بناء
المدن العظمى والحواضر
الكبرى - بوسعها أن
تشارك من مراكز قيادية
في مستقبل البشرية.

إنه ليشرّفني اليوم - وباسم سلطنة عُمان، ورعاية جلالة السلطان قابوس بن سعيد حفظه الله ورعاه - المشاركة في إقامة هذا الصرح الحضاري الكبير، صرح مكتبة البيروني. لقد أولى جلالة السلطان المعظم اهتمامه ولأكثر من أربعة عقودٍ بنشر رسالة السلام والتعارُف، والقيام بمبادراتٍ كبيرةٍ وكثيرةٍ في الشرق والغرب؛ لكي تكونَ رسالةُ النهضةِ العُمانيةُ هي رسالةُ التقدّمِ العلمي والإنساني.

وتنتشرُ اليومُ وفي حواضر العالم الكُبرى - الغربية منها والشرقية - الكراسي العلمية، ومراكز البحوثِ الحواريةِ والحضاريةِ والتي أقامها جلالة السلطان.

وإظهاراً لاهتمامه - حفظه الله ورعاه - بهذا الصرح الجديد للتعاون العلمي والحضاري، يترأسُ وفدنا اليومَ صاحبُ السمو السيد هيثم بن طارق آل سعيد الموقر وزيرُ التراثِ والثقافةِ، حاملاً مشعلَ النهضةِ العُمانيةِ ورسالتها التعاونيةِ والتضامنيةِ عبرَ العالم. ونحنُ نطمحُ في السلطنة أنْ تتعدّدَ مشروعاتُ التعاونِ وتتزايدَ مع جمهوريةِ أوزبكستانَ العريقة.



إنَّ هذهِ الدولةَ العُظمى التي أسَّسَ حداثتها الرئيسُ الراحلُ إسلام كريموف، وقد بدأ المشروعُ تحتَ قيادتهِ المهمةِ، وها هو فخامةُ الرئيسِ شوكت ميرزيايف يؤكدُ بالمتابعةِ والإنجازِ على علاقاتِ الصداقةِ والتعاونِ، وعلى صنعِ الجديدِ والمتقدِّمِ.

إنَّ جمهوريةَ أوزبكستان تتعدَّدُ وتتزايدُ فيها بحمدِ اللهِ صرُوحُ العلمِ والمعرفةِ، فيسرُّنا أيضاً أن نُسهمَ في هذا النهوضِ الكبيرِ الذي سيبقى نافِعاً للناسِ أجيالاً وأجيالاً.